نوبةُ شَبَق

ناطق خلوصي ❖

تساقطتْ شظايا من بصرها على وجهه، وهو يقف وسط الحشد الذي يكتظّ به الرصيفُ المقابل. فرفعتْ رؤوسَ أصابع يدها اليمنى ولوّحتْ له بها بحذرٍ خشيةَ أن لا يلتقط بصرُه تلويحتَها فيقتنصَها بصر آخر متطفّل. لكنّ بصرَه التقط تلك التلويحة، فشقّ طريقَه بين الزحام قادمًا باتجاهها. عَبَرَ الشارعَ بخطًى سريعة، تلاحقه نظراتُ أحد رجال الحراسة الشزرة، الذي ربما راعى كهولتَه فغضّ الطرفَ عن عبوره من هذا المكان.

حين بلغ الرصيفَ الذي تقف عليه، دسّ جسدَه بين الحشد، وشقّ طريقَه بصعوبة، إلى أن صار قريبًا منها، فنشرتْ على وجهها ابتسامةً عريضةً، والتقطت إصبعيْن من كفّه اليمنى وراحت تضغط عليهما. همس لها: «لكأنّ هاجسًا أنبأني أنني سأراكِ هنا اليومَ. أين بقيّة العائلة؟» ردّت متضاحكة: «لا أدري، والله؛ فقد خرج كلٌّ منّا بصورةٍ منفردة. هكذا تسير الأمورُ بيننا كما تعلم.» أشارت عليه بأن يقف خلفها لتتخلّص من محاولات مراهقٍ نزقٍ الاحتكاكَ بجسدها، فامتثل. وفي تلك اللحظة شعرتْ بالراحة تغمرها؛ فبإمكانها الآن أن تتحرّك كما يحلو لها ما دامت في ظلّ حماية جسده. وقد بدأتْ تتحرّك فعلاً، إذ شعر بأعلى ظهرها يلتصق بصدره، وبمؤخّرتها تضغط على أسفل بطنه، وصارت تحتكّ به. ضايقه ذلك، وكان يمْكن غيرَه أن يسيء تفسيرَ حركتها، لكنه يعرفها جيّدًا ويعرف الظروفَ التي مرّت بها، فتركها تتصرّف كما تشاء.

كانت المواكب تمرّ ببطء شديد، والمهرجانُ في أوّله: عربات مزيّنة، ترافقها خيولٌ مطهّمة، يعلو صهواتِها فرسانٌ في ثيابٍ مبهرجةٍ يبدون معها مثلَ الطواويس المنفوشة الريش. هذه هي المواكب الآليّة إذنْ: سيلٌ لا ينتهي من العربات؛ وسوف تليها المواكبُ الراجلة، كما هو مثبّتٌ في برنامج المهرجان، تتقدّمها زهراتُ رياضِ الأطفال بثيابهنّ البيض، يُنْشدن بألسنة ببغاوات، تليها فرقُ الرقص الشعبيّ.

فجأةً رآها تستدير نحوه، فتمسك بيده، وتسحبه باتجاه الخارج، وسط دهشته واحتجاجه. وإذ صارا خارج الحشد، أفلت يدَه من يدها، وتوقّف، فتوقّفتْ، وتساءلتْ عيناه: «لماذا؟!» قالت: «لقد شاهدْنا ما يكفي، وكلُّ ما تبقّى تكرار في تكرار.» عقّب محتجّاً: «ولكننا لم نشاهد الجزءَ المهمّ بعد. يقولون إنّ موكب راعي المهرجان سيمرّ في آخر المطاف، وإنه سيأتي ممتطيًا سنامَ بعير.» انفجرتْ ضاحكةً: «وماذا بعد؟» «وإنه سينثر صررَ النقود على رؤوس مريديه.» قالت مكذّبةً: «لا تصدّقْ. يقولون ذلك ليزيّنوا صورتَه. وهل تعتقد أنه ينام على خزائنِ قارون ليقدّم المالَ إلى كلّ هذا السيلِ العرمِ من البشر؟ هيّا إلى البيت، نبتعد عن هذا الضجيج ونأخذ قسطًا من الراحة.» سحبتْه من يده، فطاوعها مضطرّاً.

سارت الى جواره بقامة منتصبة، وبدت في عمر صُغرى بناته. لا أحد يصدّق أنها تجاوزت الأربعين، وأنّ ابنها البكر اجتاز مرحلة مراهقته، وأنّ ابنتها تقف على عتبة المراهقة. رآها تختلس منه النظر بين حينٍ وآخر، فانتابه هاجسُ قلقٍ خفيّ، وقال مناكدًا: «أراك لم تلتزمي بتعليمات الجهات المختصّة!» تساءلتْ باستنكار: «وماذا تقول هذه التعليمات؟» ردّ متضاحكًا: «لقد طلبوا إلينا أن نَظْهر بأزهى ما لدينا من ثياب، وها أنتِ تلبسين هذه الجبّة السوداء الخفيفة فوق ثيابك وكأننا في مأتم لا في مهرجانٍ للفرح.» سألتْ: «ولماذا يطلبون إلينا ذلك؟» ردّ على عجل: «لكي لا نجدَ من يقول إننا محضُ حفنةٍ من جياع وحفاةٍ وعراة. كان عليكِ أن تظهري بما يوحي أنك في حالة فرح.» احتدّ صوتُها: «لم يطرق الفرحُ بابَ قلبي منذ تلك الليلة.» وجم وخشي أن تستعيدَ صورًا من تلك الأيام فتنتابها نوبةٌ مخيفة. ولكنها أشاحت بوجهها عنه، ثم التفتتْ إليه وهمستْ ضاحكة: «من أين جئتَ بكلّ هذه الوسامة؟» انفجر مقهقهًا: «وسامة وأنا في وشالة العمر؟!» ردّت ملهوجةً: «بل ما زلتَ في ذروة شبابك.» قال وهو يمسك بيدها ويستعجلها السير: «دعينا من المزاح الآن. لنصل البيتَ أولاً.»

❖ ـ كاتب من العراق.

كان الشارع خاليًا من السابلة، لذلك لن يراهما أحد وهما يسيران يدًا بيد ويتحدّثان بصوتٍ مرتفع. ولو وقع بصرُ أحدهم عليهما، فلن يساوره الشكُّ في أنه واحدٌ من أفراد العائلة. فمنذ أن غيّب الموتُ أخاه وجد نفسَه مسؤولاً عن رعاية أسرته، فرعى الأبناءَ مثلما يرعى أولادَه: فقد كان يولي زوجَ هذه السائرة إلى جواره رعايةً متميّزة، وكان يحمله على صدره وهو صغير ولا يردّ له طلبًا. لم يكن غريبًا، إذنْ، أن يدخل البيتَ ويخرجَ من دون استئذان، بل كان في ميسوره أن يدخل غرفَ النوم ويستلقي على أيّ سريرٍ يشاء عندما يريد أن ينام القيلولة. أما هي فليست من العائلة، وقد استحوذ عليها ابنُ أخيه بعد أن انتزعها من مقاعد الدراسة وهي في سنتها الجامعيّة الأولى.

كانت مهمّته شاقّة حين مرّت بمحنتها السوداء وتحمّل مسؤوليّتَها وحده. إنه يستذكر الآن تلك الأيام: أيامَ التنقّل بين المستشفيات وعيادات الأطبّاء النفسانيين، وأيامَ النوبات الشرسة. يرى نفسَه الآن في عيادة الطبّ النفسي وقد طلب إليها الطبيبُ أن تنتظر في صالة الانتظار بعد أن انتهى من تدوين ملاحظاته عنها، واختلى به. يسمعه يقول له: «أهي ابنتك؟» فيردّ: «يمكنك أن تقول ذلك.» فيعود الطبيب يسأله: «أهي متزوّجة؟» فيقول: «ولها ولدٌ وبنتٌ.» يصمت الطبيب لحظةً: «وزوجُها؟» يزفر بعمق: «غائب عنها منذ أشهر. لقد تعرّض إلى ظرف صعب، فهاجر إلى بلد آخر.» يرى الطبيب يدوّن ملاحظاته، ثم يرفع بصرَه نحوه ويسمعه يقول: «لا أخفيك أنّ حالةَ ابنتك لا تخلو من خطورة. إنها تعاني جوعًا جسديّاً بسبب غياب زوجها عنها، وقد يقودها ذلك إلى الانحراف أو إلى نوبات شَبَقٍ جنونيّ فتصبح خطرًا على مَنْ معها. لا بدّ من أن تكون حذرًا معها وتحاول إشغالَها عن التفكير بزوجها. سأكتب لها بعضَ العلاج، ولا مناصَ من جلساتٍ أخرى.» أثار كلامُ الطبيب الرعبَ في داخله، فأوصى مَن في البيت أن يُحْسنوا التعاملَ معها وأن يتوخّوا الحذرَ منها في الوقت نفسه. أَجهد نفسَه في توفير كلِّ ما يمكن أن يشغلها به ولم يغمضْ عينَ رعايته وعينَ حذره عنها.

انتبه إلى أنه انشغل عنها قليلاً فاعتذر. قالت ضاحكةً وهي تنوس برأسها: «أين سرحتَ؟» ردّ: «في مكانٍ قريب.» قالت: «ربما في المهرجان وصرير النقود!» شعر كأنها مدّت إليه حبلَ نجاة: «بالضبط. كيف عرفتِ؟» تضاحكتْ: «لقد حدستُ ذلك.» حاول أن ينتقل إلى موضوعٍ يبعدها عن التفكير في ما يمكن أن يعود بها إلى الشكّ في ما قال، فتساءل: «كيف حالُ الولد والبنت معك؟» ردّت ضجرةً: «في أسوإ حال! إنني لا أنام من الليل إلا ربعَه بسببهما. كانا معتاديْن أن يناما في فراشٍ واحدٍ في طفولتهما، وأخشى أن يستبدّ بهما الحنينُ إلى تلك العادة الآن. إنّ عين مراقبتي تظلّ يقظة عليهما في الليل، مع أنّ البنت تنام إلى جواري على السرير.» قال محاولاً التخفيفَ من غلواء شكوكها: «لا أرى ما يدعو إلى مثل هذه الشكوك. فأنتِ تعبتِ عليهما وأحسنتِ تربيتَهما، فلا مدعاة للمخاوف.» سألتْ بصوت منكسر: «هل تظنّ أنني أحسنتُ تربيتهما حقّاً؟» قال: «بل أنا متأكّد مما أقول. وهذا رأيُ الجميع أيضًا.» ابتسمتْ عن رضًا ودمعتْ عيناها من الفرح.

فجأةً وجدا نفسيْهما أمام باب البيت. أخرجت المفتاح من حقيبتها اليدويّة ودسّت به في ثقب القفل، وما لبثتْ أن دفعت الظلفةَ وهمستْ: «تفضّل!» قال: «أنتِ أولاً.» ردّت بعنادٍ طفوليّ: «بل أنتَ أولاً. أنسيتَ أنك ضيفي؟» نظر إليها معاتبًا وما لبث أن انحشر من خلال الفُرجة التي أحدثتْها حركةُ يدها وهي تدفع الظلفة ووجد نفسَه في المدخل. رآها تدخل وتغلق البابَ بالمفتاح. تساءل مستنكرًا: «لماذا بالمفتاح؟!» قالت ضاحكة: «ذلك أفضل!» عاد يسأل: «واذا جاء أحدُهم؟» ردّت وهي تجتازه: «لا تقلقْ. كلّ واحد له نسختُه من المفتاح.» سارت، فوجد نفسه مضطرّاً إلى اللحاق بها. رآها تتّجه صوب غرفة نومها، فوقف متردّدًا. التفتتْ اليه وتساءلتْ مستنكرة: «ما هذا؟! أهذه أول مرة تدخل فيها هذه الغرفة؟» هزّ رأسه بالنفي، فعادت تسأل: «ألم تنم القيلولة فيها أكثرَ من مرة؟» هزّ رأسَه مؤيّدًا هذه المرة. سمعها تقول بنبرة احتجاج: «لماذا تتردّد إذن؟ تعال. إنها في الأقلّ أبردُ مكان في البيت.» رآها تفتح الباب وتدخل، فحسم تردّده. دخل وكانت تقف وراء الباب، وإذ اجتازها رآها تردّ الظلفة وتدير المفتاح، بل وضعتْ قفلاً صغيرًا في مزلاج الباب وقفلتْه. سرت في جسده هزّةُ خوفٍ

حقيقيّ. انفجر محتجّاً: «لماذا كلّ هذا؟» ردّت متضاحكة وهي تسير صوب وسط الغرفة: «لكي نكون أكثر أمانًا.» لاحقها صوتُه المحتجّ: «ولكنكِ تضعيننا في موقف محرج. ماذا سيقول مَن يأتي ويجدني مختليًا بك وراء باب مغلق؟!» قالت دون أن تلتفت إليه: «لا تحملْ همّاً. لن يجيء أحدٌ منهم قبل أول المساء. تعال ولا تظلّ واقفًا هناك.»

سار صوب وسط الغرفة هو الآخر ووقف على بعد خطوتين أو ثلاث خطوات وراءها. سمعها تقول: «هذا جيّد. ليبقَ كلٌّ منّا في مكانه ونتحدّث وأحدنا يرى الآخر من خلال المرآة.» هزّ رأسه حائرًا: إنّ تصرفاتها لا تبدو سليمة هذا اليوم. رآها تفتح أزرار جبّتها السوداء وتنضوها عنها وترمي بها على السرير القريب، فانكشفتْ ذراعان رائعتان عاريتان وعنقٌ طويل. قال ممازحًا ومناكدًا وقد رأى أنّ الثوب الذي ترتديه تحت الجبّة أسودُ هو الآخر: «ما هذا؟ إنكِ سوادٌ في سواد إلى قطع النفس!» تضاحكتْ: «ليس إلى هذا الحدّ؛ فتحت ثالثِ سوادٍ ثمّة بياض.» فكّت الربطةَ من رأسها ونشرتْ شعرَها فبان لامعًا متوهّجًا تزينه شعراتٌ بيضاءُ قليلةٌ متناثرة. قالت: «كيف تراني الآن؟» ردّ مجاملاً: «على أروع ما تكونين.» «ومَنْ أجمل: أنا أمْ بطلةُ **لوليتا**؟» تذكّر أنه كان قد جاءها برواية **لوليتا** أيّام محنتها، وربما أخطأ في اختيار هذه الرواية. قال على عجل: «أنتِ بالتأكيد!» عادت تسأل بغنجٍ طفوليّ: «ألا ترى أنّ الفارق بين عمرها وعمر عشيقها مُشابهٌ للفارق بين عمري وعمرك؟» ضايقه سؤالُها، لكنه ردّ مضطرّاً: «لا بالتأكيد. فبطلة **لوليتا** صغيرة السنّ، أما أنت فامرأة ناضجة والحمد لله.» التفتتْ إليه ونشرتْ على وجهها ابتسامةَ رضا: «أتراني جميلة حقّاً؟» ردّ مجاملاً: «بل أكثر من جميلة.» أدارت وجهَها عنه وزفرتْ بعمق: «لماذا هَجَرني إذن؟». شعر تلك اللحظة أنها بدأتْ تنكأ جرحًا قديمًا. قال محاولاً تبريرَ فعلة ابن أخيه: «أنت تعرفين ما أصابه من جوْر.» احتدّ صوْتها: «ما أصابه أصابني أنا أيضًا. لقد تحمّلتُ من العناء أكثرَ مما يمكن إنسانًا أن يتحمّله.» عقّب بصوت خفيض: «أعرف ذلك. كان الله في عونك.» قالت وقد أغمضتْ عينيها قليلاً: «إنني بأمسّ الحاجة إليه الآن، ليس من أجلي، وإنما من أجل الولد والبنت. أعرف أنه يتكفّل بكلّ ما نحتاجه، لكنّهما في حاجة إليه وهما في مثل سنّهما.» قال: «ما تقولينه صحيح، ولكنه منحك ثقته حين أودعهما لديك، وقد كنتِ عند حسن الظنّ. بارك الله فيك.» احتدّ صوتُها: «لماذا أجد مَن يحمّلني مسؤولية ما حدث وكأنني كنتُ وراء هجرته؟» ردّ متودّدًا: «مخطئ مَن يحمّلك المسؤولية. لا أنت ولا هو تتحمّلان المسؤولية. أولئك الأشرار هم من يتحمّلنها. عليهم اللعنة.» ارتفع صوتُها قليلاً: «لينتقم اللهُ منهم شرَّ انتقام.»

أطرقتْ قليلاً، وسرحتْ بعيدًا، وعلى حين غرّة قالت وقد هبطتْ نبراتُ صوتها: «آه لو كنتَ معنا تلك الليلة. خلعوا البابَ الرئيسيّ، ثم اقتحموا هذه الغرفةَ ونحن نيام، فهببنا واقفين، وبدأ الطفلان يصرخان، فهدّدوهما بفوّهات البنادق. كنتُ أرتدي قميصَ نومي الشفّاف، وكان هو لا يستر جسدَه سوى سروالٍ داخليّ قصير.» غطّت وجهَها بيديها وهي تتحدّث بصوتٍ خفيض: «سحبوه أرضًا. حاول أن يقاوم فلطموه على وجهه، ولووْا ذراعيْه وراء ظهره، وأوثقوا يديْه بقطعة حبلٍ خشن، وأنزلوا سروالَه، فوقف عاريًا تمامًا. أما أنا فقد أجبروني على أن أتعرّى وأن أستلقي على السرير أمام ناظريْه. رأيتُه ينظر إليّ بعينين ذليلتين، دامعتين...» صمتتْ لحظاتٍ ثم تهدّج صوتُها: «لقد أقاموا وليمةً شهيّةً على جسدي. تناوب ثلاثةٌ منهم عليّ، أما الرابع فقد ظلّ واقفًا يتسلّى بالمشهد، أو ربما أنِفَ من أن يتناول من فضلات مائدة غيره.» وانفجرتْ باكية، ثم قالت بعد هنيْهة وهي تنهنه: «سحلوا المسكينَ على الأرض كما تُسحل الفطيسة وخرجوا به. أعادوه إلينا نصفَ إنسان بعد أشهر. أهانوا رجولتَه مرتين: مرّةً هنا وهو يراهم يغتصبونني، ومرّةً هناك. لماذا فعلوا به ذلك وهو لم يرتكبْ إثمًا حين اختلف معهم في الرأي؟!» انتبهتْ إليه عبر المرآة وهو يكفكف دموعَه. مسح عينيه بكمّ قميصه وتهدّج صوتُه: «لأنهم يخافون من كلّ رأيٍ مغايرٍ لرأيهم.» طالت فترةُ صمتها بعض الشيء وما لبثتْ أن قالت: «إنني لأعجبُ كيف لم أحبلْ من أحدهم!» قال بأسًى: «احمدي ربّك.» رفعتْ بصرَها إلى الأعلى فاصطدم بعتمة السقف وغمغمتْ: «لا أراه!» تلفّظ غمغمتَها بغضب: «إننا لا نراه بأعيننا يا ابنتي!» أوشكتْ أن تصرخ في وجهه أن يتوقّف عن مخاطبتها بـ «يا ابنتي،» فهي تثير اشمئزازها، لكنها تراجعتْ في آخر لحظة. وفجأةً أدارت نحوه وجهًا مبلّلاً بالدموع، وقالت بلسانٍ ليّن: «لا تغضبْ أيها الوسيم. حقّاً لم تقل لي من أين جئتَ بكلّ هذه

الوسامة؟!» هزّ رأسَه: «أيّة وسامة هذه التي تتحدّثين عنها؟ أما ترين التجاعيدَ التي تملأ وجهي؟!» نظرتْ إليه بحنان، وقالت بعناد: «بل أراك في منتهى الوسامة والشباب. أنت بحُسنِ يوسف تمامًا. تعال نلعبْ لعبة! ستكون أنتَ يوسف، وأنا امرأةُ العزيز.» وتمتمتْ: «وغلّقت الأبواب وقالت هَيْتَ لك.»

أحسّ بخوفٍ حقيقيّ؛ فها إنّ أمارات النوبة تتّضح تمامًا. نظر صوب الباب، فقالت متضاحكة: «لا تُتعبْ نفسك. صحيح أنّ المفتاح موجود على الباب، لكنّ القفل الصغير مقفل، ومفتاحه مشبوك بزيق ثوبي بدبّوس. لن أدعك تفلت مني مثلما فعلت امرأةُ العزيز مع يوسف! أنظرْ!» ورآها ترفع ثوبَها الأسودَ وقميصَها الداخليّ الأسود إلى وسطها، فيتكشّف مثلّثُ القماش الأبيض وهو يضغط على أعلى الفخذين المرمريتيْن وتلتمع سمانتا ساقيها المتلئتان. أحسّ بها تتراجع نحوه وهي تقول: «هيّا يا حبيبي!» شعر أنها تريد أن ترتكب حماقة وتدفعه إلى أن يرتكب الحماقة نفسَها، ولكنْ هيهات؛ فها إنّ كلّ إيمانه بالقيم النبيلة ينهض في داخله الآن. قال بصوت هادئ: «تعقّلي يا ابنتي.» تفجّر صوتُ غضبها: «لماذا تخاطبني بـ «يا ابنتي»؟!» عاد يقول بما يقترب من الهمس: «تعقّلي يا عفاف.» لكنه رآها تتمادى وتقترب منه أكثر، فتراجع على عجل وتراجعتْ هي في إثره حتى صار ظهرُه لصق الجدار وصارت تضغط عليه بجسدها وتحتكّ به. حاول أن يتحايل عليها. قال متودّدًا: «دعينا نذهب إلى السرير.» فكّرتْ للحظات وما لبثت أن قالت: «لا.. لا.. قد أحبل منكَ ونحن على السرير، وأنا لا أريد ذلك. هنا أفضل.» قرّر أن يتخلّى عن عاطفته وعن حذره موقّتًا. دسّ، بعد تردّد قصير، يديْه في فتحة زيق ثوبها وراحت يدُه اليسرى تحتوي هذا الثديَ وتداعب حلمتَه تارةً، وتحتوي ذاك الثديَ وتدعك حلمتَه تارةً أخرى، فبدأتْ تتراخى وهمستْ: «نعم، هكذا يا زوجي العزيز!» وصارت تزداد التصاقًا واحتكاكًا به، وكانت أصابعُ يده اليمنى تبحث عن المفتاح حتى استطاعت أن تنتزعَه من زيق الثوب. دسّ المفتاحَ الصغيرَ في جيبه وسحب يدَه اليسرى، فوجمتْ لحظة ثم تساءلتْ بصوت خفيض: «لماذا توقفتَ؟!» قال: «لأنّ اللعبة انتهت.» صاحت: «ماذا تعني؟» ردّ: «أعني ما أعني. انسحبي عني لأذهب وأفتح البابَ.» قالت ساخرةً: «كيف تفتح الباب ومفتاحُ القفل مشبوكٌ في زيق ثوبي؟!» تضاحك: «كان. أما الآن فلا.» مدّت يدَها إلى صدرها وتحسّستْ موضعَ المفتاح وأطلقتْ صرخة حادة واستدارت نحوه وبدأتْ تلطم وجهَه: «كيف سرقتَه مني؟» أمسك يديها ورأى أنّ ذلك الوجه النورانيّ استحال إلى وجه كائنٍ بشع. لوى ذراعيْها وراء ظهرها، وظلّ ممسكًا يديْها بيد، محاولاً أن يكمّم فمَها باليد الأخرى ليوقف صراخَها، لكنها أوشكتْ أن تُنزل أنيابَها على أصابعه لولا أنه سحبها في اللحظة المناسبة. فجأةً استدارت بوجهها نحوه وصرختْ به: «من أنت؟ لماذا أنت هنا؟ مَنْ أباح لك أن تقتحم غرفةَ نومي؟ وما هذا الذي تريد أن تفعله بي؟ سأخبر زوجي.»

كان صوتُها يخترق جدرانَ الغرفة. برقتْ في ذهنه فكرة. صاح بصوتٍ أعلى من صوتها: «بل أنا الذي سأُخبر زوجك.» خفتتْ حدّةُ صوتها: «وبماذا ستخبره؟» همس: «سأخبره بكلّ ما أعرفه عنك!» وجدها تنزلق من يديه وتتهاوى على الأرض وهي تتمتم: «لا تخبرْه أرجوك. أبوس حذاءَك.» أدركَ أنّ ذروة موجةِ نوبتِها آلت إلى الانكسار، فاستبدّ به العطفُ عليها. انحنى وأمسك بكتفيْها وبدأ يُنهضها من الأرض. وقفتْ بقامةٍ منحنيةٍ، دامعةَ العينين. وإذ التقى بصرُها بوجهه وتبيّنته، وقد زالت غمامةُ النوبة عن عينيها، ألقت رأسَها على صدره وأخذتْ تجهش بالبكاء.

بغداد